مجلـة التطوير العلمي للدراسات والبحوث
Journal of Scientific Development for Studies and Research (JSD)
المجلد الثالث، العــدد: 10 (2022)، Volume 3, Issue 10

البعد الاجتماعي في نظرات المنفلوطي (156– 173)

أ.د خميس فزاع عمير الدليمي
جامعة الانبار – العراق

The social dimension in Manfaluti's views

Prof. Dr. Khamis Fazza Amir Al-Dulaimi
University of Anbar – Iraq, dr.km0246@gmail.com

ملخص:

إن جوهر البحث هو الوقوف على قراءة للبعد الاجتماعي في كتاب" النظرات" للكاتب "مصطفى لطفي المنفلوطي، وهو عبارة عن مجموعة المقالات الأسبوعية التي كان ينشرها في "المؤيد" ويعالج فيها موضوعات الاجتماع والسياسة والأدب، ويصور فيها أحوال المجتمع المصري في ذلك العهد وربط ذلك بالواقع الحالي.

هدف المنفلوطي وغايته وراء هذا النقد الذي وجهه إلى الأدواء الاجتماعية والأوصاب الخلقية، هو إصلاح المجتمع من المفاسد التي انتشرت فيه،و سبب اختيار الموضوع: رسم صورة واضحة للمتلقي عن الواقع الذي عاشه المؤلف فكان يلتقط معظم موضوعاته من حياة الناس اليومية وربط ذلك ادبيا مع الحياة الواقعية، والسؤال المحوري لموضوع البحث: هل هناك مخرج لإصلاح الواقع الاجتماعي الحالي من خلال تبيان المشاكل وايجاد الحلول التي تبناها المنفلوطي في نظراته.

يهدف الموضوع باختصار إلى : وتهذيب النفوس على الأخلاق الكريمة، وانقاذ الفضيلة من مخالب الرذيلة فنقد المنفلوطي للمفاسد الاجتماعية، تتميز هذه الدراسة بانها اصيلة من خلال ربط القديم الذي هو جديد وقته بالبعد الاجتماعي الحالي الذي تغيرت مفاهيمه واساليب معالجة هفواته من خلال تحليل واضح وعصري، وقد نهج الباحث في هذا البحث منهجاً استقرائياً من أجل فهم فكر المنفلوطي وإدراك رؤيته في عرض المشكلات، وكيفية معالجتها فنياً، إلى جانب المنهج التحليلي الوصفي الذي يعين على تحليل كتاب النظرات تحليلاً يفضي إلى نقده على أسس واضحة.

إشكالية البحث : تكمن في الإجابة عن التساؤلات التالية: ما القضايا التي تضمنها كتاب النظرات للمنفلوطي و كيف عالج المنفلوطي قضايا المجتمع في كتاب النظرات.

خطة البحث: اختار الباحث عنواناً لبحثه وهو " البعد الاجتماعي في نظرات المنفلوطي " وقد قام الباحث بتقسيم البحث إلى مقدمة وتمهيد و خمسة مباحث وخاتمة، التمهيد يتناول عصر المنفلوطي وتركيبته الاجتماعية الدينية من خلال ترجمة المنفلوطي مع التركيز على نشأته الدينية متناولا كتاب "النظرات" تأليفه وميزته وحدود موضوعاته، ثم عرض الباحث أبرز القضايا الاجتماعية في كتاب النظرات كمباحث منتخبة من الكتاب وفي الخاتمة عرض الباحث أبرز النتائج التي توصل إليها من خلال البحث.

كلمات مفتاحية: السلوك، الفقر، الاجتماعية، الحرية ، المرأة.

Abstract:

The essence of the research is to stand on a social reading in the book “The Looks” by the writer “Mustafa Lutfi Al-Manfaluti, which is a collection of weekly articles that he published in “Al-Moayad” and dealing with the topics of sociology, politics and literature, and depicting the conditions of Egyptian society in that era, and what it reached From misery, misery and degeneration of morals, the researcher chose a title for his research, which is “The Social Dimension in Al-Manfaluti’s Looks.” The problem of this research lies in answering the following questions: What are the issues included in the Looks book by

Al-Manfaluti and how did Al-Manfaluti treat community issues in the Looks book? The researcher divided the research it has an introduction, preface, five demands, and a conclusion. In the preface, the researcher dealt with the definition of Manfaluti, then gave a conception of the book "Al- the Looks", its authorship, its advantages and the limits of its topics. Then the researcher presented the most prominent social issues in the book of looks as selected demands from the book; because the issues contained in this book are many that need volumes to be found and discussed. In the conclusion, the researcher presented the most prominent results that he reached through the research.

Keywords: Women; Freedom; Social; poverty; behavior.

المقدمة:

يُعَـدُّ مصـطفى لطفـي المنفلـوطي ظـاهرة غـير مسـبوقة في إنشـائه الخـلّاب، وفي صـوره المنحوتـة البديعـة، وفي مواجـده الباكيـة، وأحاسيسـه الـتي ألهبـت قُـرّاءه؛ فتخطفـوا كتاباتـه، وهـم بـه مغرمـون، ومتيَّمـون، حـتى أضـحى إمامـاً لمدرسـة ترتاد طريقته في الكتابة، وصار له مريدون، ومقلدون في العراق، والشام، والحجاز، والمغرب العربي.

وكتـاب" النظـرات" عبـارة عـن مجموعـة المقـالات الأسـبوعية الـتي كـان ينشـرها في "المؤيـد" ويعـالج فيهـا موضـوعات الاجتمـاع والسياسـة والأدب، ويصـور فيهـا أحـوال المجتمـع المصـري في ذلـك العهـد، ومـا بلغـه مـن البـؤس والشـقاء وانحطـاط الأخـلاق، فـالنظرات هـي إحـدى الحمـلات الأدبيـة ضـد كـل مـا هـو فاسـد داخـل المجتمـع والـتي تركـز أيضـا علـى عيـوب المجتمـع، ومـا يشـعر بـه المنفلـوطي مـن مسـاوئ الأخـلاق مثـل القمـار والـرقص والخمـر وسـقوط الفتيـات والفتيـان في البـؤس والرذيلـة. ففـي نظـره أفسـدت المدنيـة الغربيـة الشـباب إذ فتحـت أمـامهم أبـواب الملاهـي وحـولتهم عـن حياة الجد والحشمة والوقار.

وقـد تنوعـت ادبيـات القضـايا الاجتماعيـة في أدب المنفلـوطي، ولم تكـن محصـورة في زاويـة معينـة وفيـه دليـل علـى أنـه لم يكـن أديبـا منعـزلا انعـزالا شـعوريا عـن مجتمعـه الـذي يعـيش فيـه، بـل كـان مـتغلغلا، في مجتمعـه ومـا يعانيـه مـن قضـايا ومشـكلات ولم يكـن تناولـه للظـاهرة الاجتماعيـة مقصـورا علـى الرصـد والتصـوير، بـل كـان يكشـف عـن كيفيـات معالجـة الظـاهرة والتغلـب عليـه، بمـا يميـز أدبـه في هـذه الزاويـة، بكونـه أدبا إصـلاحيا، ولـيس تصـويريا فقـط فقـدّم المنفلـوطي في أدبـه صـورة صـادقة عـن الواقـع الـذي عاشـه فكـان يلـتقط معظـم موضـوعاته مـن حيـاة النـاس اليوميـة، مـن الحادثـة العـابرة الـتي قـد لا يحفـل النـاس بهـا، ولا يعيرونهـا أيّ اهتمـام، فيسـتوقفهم المنفلـوطي عنـدها، ويسـلّط عليهـا الأضـواء مـن نفسـه، حـتى يصل من خلالها إلى غرضه الأساسي وهو إصلاح المجتمع، وتهذيب النفوس، وسمو الأخلاق الفاضلة في نفوس الناس.

وكـان هـدف المنفلـوطي وغايتـه وراء هـذا النقـد الـذي وجهـه إلى الأدواء الاجتماعيـة والأوصـاب الخلقيـة، هـو إصـلاح المجتمـع مـن المفاسـد الـتي انتشـرت فيـه، وترقيـق القلـوب علـى البائسـين والمـرزوئين، وتهـذيب النفـوس علـى الأخـلاق الكريمـة، وانقـاذ الفضـيلة مـن مخالـب الرذيلـة فنقـد المنفلـوطي للمفاسـد الاجتماعيـة الـتي وجـدت في عصـره، يحـارب الفسـاد

والانحـراف، ويريـد الخـير للمجتمـع، ويـدعو إلى التسـامح وعـدم التعصـب، والتـزام الجـادة والصـواب، وينفـر عـن الزيـغ والفساد.

خطة البحث:

لبحث الإشكالية السابقة قام الباحث بتقسيم البحث إلى: مقدمة وتمهيد و ستة مطالب وخاتمة.

ففـي التمهيـد تنـاول الباحـث التعريـف بالمنفلـوطي، ثم أعطـى تصـوراً عـن كتـاب "النظـرات" تأليفـه وميزتـه وحـدود موضوعاته.

ثم عـرض الباحـث أبـرز القضـايا الاجتماعيـة في كتـاب النظـرات كمطالـب منتخبـة مـن الكتـاب؛ لأن القضـايا الـتي احتواها هذا الكتاب كثيرة تحتاج إلى مجلدات للوقوف عليها وبحثها.

وفي الخاتمة عرض الباحث أبرز النتائج التي توصل إليها من خلال البحث.

حدود البحث:

اختـار الباحـث كتـاب " النظـرات " لمصـطفى لطفـي المنفلـوطي، ليكـون ميـداناً للتطبيـق الاجتمـاعي، والكتـاب مكـون من ثلاثة أجزاء.

منهج البحث:

نهـج الباحـث في هـذا البحـث منهجـاً اسـتقرائياً مـن أجـل فهـم فكـر المنفلـوطي وإدراك رؤيتـه في عـرض المشـكلات، وكيفيـة معالجتهـا فنيـاً، إلى جانـب المـنهج التحليلـي الوصـفي الـذي يعـين علـى تحليـل كتـاب النظـرات تحلـيلاً يفضـي إلى نقـده علـى أسس واضحة.

التمهيد: التعريف بالمنفلوطي وبكتاب النظرات:

وُلـد مصـطفى لطفـي المنفلـوطي سـنة 1876 ببلـدة منفلـوط إحـدى بلـدان مديريـة أسـيوط لأسـرة مصـرية معروفـة بالشـرف والحسـب واختلـف في أول حياتـه علـى عـادة أضـرابه مـن أبنـاء الريـف إلى "الكُتَّـاب" فحفـظ القـرآن الكـريم، ولمـا يتجـاوز الحاديـة عشـرة مـن سـنه. وأرسـله أبـوه إلى الأزهـر؛ ليـتم تعليمـه فيـه، وظـل بـه عشـر سـنوات يـدرس ويحصِّـل، ولم يلبـث حـين وجـد الشـيخ محمـد عبـده يـدرس للطـلاب تفسـير القـرآن وكتـابي عبـد القـاهر في البلاغـة: "دلائـل الإعجـاز وأسـرار البلاغـة" أن أعجـب بـه، فلـزم دروسـه، وانصـرف عـن الأزهـر وعلومـه ورجالـه. ويظهـر أنـه ضـاق بطريقـة

التعليم فيه، وتحول ذلك عنده إلى يأس، وسرعان ما وجد ما كان يطلبه عند محمد عبده، وقد تأثر تأثرًا قويًّا بتعاليمه[1].

وكان المنفلوطي يقرأ كل ما يعثر عليه من كتب التراث القديم شعره ونثره، وما أنتجته القرائح، في الأدب العربي الحديث شعره ونثره أيضا، ومما دخل في أدبنا الحديث من روائع الأدب الغربي عن طريق الترجمة التي آتت ثمارها منذ أواخر القرن الماضي، فأقبل المنفلوطي على مطالعة هذه الألوان الأدبية، ووقف على طرائف النثر الفني التي كانت سائدة في أيامه، والنثر الفني كان على عهده لوناً حافلاً من أدب القاضي الفاضل، أو نثراً ماثلاً لفن ابن خلدون، يتمثل الأول قوياً في طبقة المويلحي وحفني ناصف، ويظهر الثاني ضعيفاً في طبقة قاسم أمين ولطفي السيد.

وقد قال "أحمد حسن الزيات" في ذلك:" اعلم أن المنفلوطي تأثر في القديم بابن المقفع وابن العميد، وفي الحديث بجبران ونعيمة، ولكن هذا دخل في فنه دخول إلهام و إيحاء لا دخول التقليد والاحتذاء"[2] ،وقد أفصح المنفلوطي نفسه عن روافد هذه الثقافة في مقدمة كتابه "النظرات" إذ يقول: ولقد قرأت ما شئت من منثور العرب، ومنظومها، في حاضرها وماضيها، قراءة المتثبت المستبصر"[3] ،يضاف إلى ذلك ما أشرنا إليه من تلمذته على يد الإمام محمد عبده الذي كان معنياً بعلوم البلاغة العربية، لدرجة أن الأستاذ محمد رشيد رضا اعتبر أن المنفلوطي الأديب قد تخّرج على يد الأستاذ الإمام، لأنه تتلمذ عليه في كتابي عبد القاهر (أسرار البلاغة) و (دلائل الإعجاز)[4]، و كان المنفلوطي قطعة موسيقية في ظاهره وباطنه، فهومؤتلف الخلق، متلائم الذوق، متناسق الفكر، متسق الأسلوب منسجم، الذي لا تلمح في قوله ولا فعله شذوذ العبقرية، كان صحيح الفهم في بطء، سليم الفكر في جهد، دقيق الحس في سكون، هبوب اللسان في تحفظ، وهذه الخلال تظهر صاحبها للناس في مظهر الغبي الجاهل، فهو لذلك كان يتقي المجالس ويتجنب الجدل ويكره الخطابة، ثم هو إلى ذلك رقيق القلب، عفَّ الضمير، سليم الصدر، صحيح العقيدة، نفاح اليد، موزع العقل والفضل والهوى بين أسرته .

وحسب اطلاع الباحث، ليس هناك مؤلفات ولا دراسات تشير إلى سبب تأليف كتاب النّظرات، بل ذهبت جلها تؤكد أنها كانت مجموعة من مقالات وقصص كان ينشرها الكاتب في المجلات والصحف خاصة في مجلة "المؤيّد"، إلا أنه يمكن التماس هذا السّبب ولو من طرف خفي مّن الكتاب نفسه، حيث قدّم له المؤلف بمقدّمة تحتوي على سيرة ذاتية عن شخصيته الأدبية، يصل إلى ذلك من يقف على وصفه المتكامل للعمليّة الأدبيّة النّاجحة؛ حيث أرجع كلّ أسباب النّجاح في العمل الأدبيّ إلى مطابقته بالحقيقة المشعور بها والمعبّرة عنها؛ حزنًا وفرحًا، وحبًّا وكراهة، مدحًا ورثاءً وغزلاً وذمًّا، وفخرًا وهجاءً، وعدم التّكلف بصنعة الألفاظ والتّقليد في التركيب، وقد

(1) شوقي ضيف: الأدب العربي المعاصر في مصر، دار المعارف، مصر، ط 13، (د. ت)، ص: 227-228.
(2) أحمد حسن الزيات: وحي الرسالة، مرجع سابق، 389/1.
(3) مصطفى لطفي المنفلوطي: النظرات، دار الآفاق الجديدة، الطبعة: الأولى 1402هـ- 1982م، (1/ 40).
(4) أحمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام، دار الفضيلة، القاهرة، ج 1، ط 2، 2006م، ص257.

مهّـد لكـلّ هـذه بكـلام يُفهـم مـن خلالـه أنـه الـدّافع إلى تأليـف هـذا الكتـاب، وإن كـان هـذا العمـل الشـعوري لا يُحَـدُّ بأسـباب معينـة لكثرتهـا واخـتلاف ظروفهـا ، إلا أنـه لا ينطلـق أيضًـا مـن دون سـبب أوّليّ؛ ذلـك السّـبب الـذي يتـآلف مـع مـا بعـده لرسـم الطريقـة المثلـى للكتابـة الأمثـل؛ إذ أجـاب الكاتـب عـن تسـاؤلات بعـض النّـاس حـول كيفيـة كتابتـه لقصصـه ورواياتـه، ونجاحـه فيهـا، يقـول: "يسـألني كثـير مـن النـاس كشـأنهم في سـؤال الكتـاب والشـعراء، كيـف أكتـب رسـائلي؟ كأنمـا يريـدون أن يعرفـوا الطريـق الـتي أسـلكها إليهـا فيسـلكوا معـي، وخـير لهـم ألّا يفعلـوا، فـإني لا أحـب لهـم ولا لأحـد مـن الشادين في الأدب أن يكونوا مقيدين في الكتابة بطريقتي أو طريقة أحد من الكتاب غيري"[5].

ويحتـوي كتـاب النّظـرات علـى(749) صـفحة بطبعـة مكتبـة مصـر مقسّـمة بـين أجـزاء ثلاثـة؛ يحتـوي الجـزء الأوّل (225) صـفحة، والجـزء الثـاني علـى(264) صـفحة، أمّـا الجـزء الأخـير فقـد احتـوى علـى (230) صـفحة، وهـو أقـلّ الأجـزاء الثلاثـة حجمـاً ، وقـد نثـر الكاتـب في الأجـزاء الثلاثـة كثـيرًا مـن الموضـوعات؛ ففـي الجـزء الأوّل تجـده قـد تناول خمسين موضوعًا، وفي الجزء الثاني تناول ثمانية وأربعين موضوعًا، وفي الجزء الأخير تناول خمسة وثلاثين موضوعًا.

ومـن خصـائص أسـلوبه الـتي نلمحهـا بـين آن وآخـر إيـراد الجمـل المترادفـة علـى المعـنى الواحـد في إسـهاب، فيقـول مـثلًا: "المـدى الشاسـع"، والشـأو البعيـد"[6]، ويقـول: "والأدب جـاثم في مكمنـه هامـد لم يبعـث مـن مرقـده"[7] ويقـول: "أين الباقي الذي يزعمون، والخلف الذي يذكرون"[8].

والمنفلـوطي في نظراتـه تحـدث عـن عيـوب المجتمـع ومـا شـعر بـه مـن مسـاوئ الأخـلاق مثـل: القمـار والـرقص والخمـر وسـقوط الفتيـان والفتيـات، فيتسـاءل: أيـن الشـرف وأيـن الفضـيلة؟ وأحـس أن بعـض ذلـك جـاءنا مـن المدنيـة الغربيـة، فصـبَّ عليهـا جـام غضـبه. ودار بعينـه في بيئتـه فـرأى كثـرة المصـابين بعاهـة الفقـر والبـؤس فبكـي واسـتغاث. وكتـب في الغـنى والفقـر، ودعـا إلى الإحسـان والـبر بالضـعيف العـاجز، وصـوّر أكـواخ الفقـراء ومـا هـم فيـه مـن مهانـة وذلـة، ودعا دعوة حارة إلى التمسك بالفضائل من مثل الوفاء، ونادى: الرحمة الرحمة! "[9].

ولعل ادبيات البعد الاجتماعي في كتاب النظرات يكمن من خلال المطالب الاتية:

(5) مصطفى لطفي المنفلوطي: النظرات ،1/ 3.
(6) مصطفى لطفي المنفلوطي: النظرات، 1/ 284.
(7) مصطفى لطفي المنفلوطي النظرات ،2/ 246.
(8) مصطفى لطفي المنفلوطي النظرات، 2/ 246.
(9) شوقي ضيف: الأدب العربي المعاصر في مصر، مرجع سابق، ص: 231.

المطلب الأول

قضية الفقر

إنَّ من أهم الموضوعات التي حظيت باهتمام المنفلوطي وعنايته، والتي حشد له كل عواطفه وطاقاته الإبداعية هو موضوع الفاقة والفقر؛ الذي كان يتردى فيها السواد الأعظم من الشعب.

ويرى المنفلوطي أن سبب بؤس الفقير وشقائه هو استيلاء الغني على المال كله دون الفقير، واعتدائه على حقوقه المشروعة، واعتقاده أنه أولى بإحراز المال منه. يقول في مقاله "الغني والفقير": " ما ضنت السماء بمائها، ولا شحت الأرض بنباتها، ولكن النظرات حسد القويُّ الضعيفَ عليهما فزواهما واحتجنهما دونه فأصبح فقيرًا معدمًا. شاكيًا متظلمًا. غرماؤه المياسير الأغنياء، لا الأرض والسماء. ليتني أملك ذلك العقل التي يملكه هؤلاء الناس، فأستطيع أن أتصور كما يتصورون حجة الأقوياء في أنهم أحق بإحراز المال، وأولى بامتلاكه من الضعفاء"[10].

ويبين أن الغِنى الحقيقي هو غنى الروح والنفس، وليس المعيار كثرة المال والعتاد كما يعتقد كثير من الناس خطأ. يقول في مقاله (الناشئ الفقير): أحب أن يكون غنيًّا بالمعنى الحقيقي، لا بالمعنى الاصطلاحي، أي أن يكون مُستغنيًا بنفسه عن غيره، لا كثير المال والثراء، وما سُمي المال غنى إلا باعتبار أنه وسيلة إلى الغنى وطريق إليه، وهو اعتبار خطأ ما في ذلك ريب" [11].

ويكاد يذوب حزنًا وأسفًا وهو يقرأ في إحدى الصحف أنه عثر بجثة امرأة في جبل المقطم ماتت جوعاً. وكأن البلاد أقفرت من الخبز والقوت، والقلوب من الرأفة والرحمة فغدت أصلب من الصخر، وأصمّ منه فلا يزعج أصحابها أنين جارهم في جوف الليل. ويرى أن سبب وقوع مثل هذه الحوادث المؤلمة هو تغاضي الإنسان وغفلته، وعدم قيامه بواجبه نحو بني جلدته. ويتساءل: "لِم ذهبت هذه البائسة إلى جبل المقطم في ساعتها الأخيرة؟ لعلها ظنت أن الصخر ألين قلبًا من الإنسان فذهبت إليه تبثه شكواها... ، وأحسبُ لو أن الصخر فهم شكواها لأشكاها .... ألم يلتق بها أحد في طريقها فيرى صفرة وجهها ،وترقرق مدامعها وذبول جسمها فيعلم أنها جائعة فيرحمها [12]!

وقدّم في مقاله "مدينة السعادة" تصويرًا بديعًا لما يجب أن يكون عليه المجتمع الذي تتحقق فيه المساواة، ويسود فيه الأمن والطمأنينة، وهذا المجتمع المثالي الذي تخيله المنفلوطي في المريخ، لا يزال أهلها على الفطرة السلمية، لا يقبلون بالتفاوت بين الطبقات، بل لا طبقات أصلاً، فهم سواسية في المنازل والمراكب والمطاعم والمشارب والهيئات والأزياء. ويعود في آخر المقال ويهجم مرة أخرى على نظام الإقطاع وفساده، و يطلق على صاحب القصر المنيف لقب شرير طماع، لأنه خالف إرادة الله وحكمته فاحتجن دون عباده أرضهم ومالهم، واستأثر بالمال من دونهم.

(10) مصطفى لطفي المنفلوطي: النظرات ،1/ 76-77.
(11) مصطفى لطفي المنفلوطي: النظرات، 16/3.
(12) مصطفى لطفي المنفلوطي: النظرات، 29/3.

يقـول المنفلـوطي في آخـر المقـال:" تلـك مدينـة السـعادة الـتي يعـيش أهلهـا سـعداء، لا يشـكون همًّـا لأنهـم قـانعون، ولا يمسـكون في أنفسـهم حقـدًا لأنهـم متسـاوون، ولا يستشـعرون خوفًـا لأنهـم آمنـون[13]. ولعـل المنفلـوطي تأثـر في تخيلـه هـذه المدينـة السـعيدة بتعـاليم الـدين الإسـلامي الحنيـف الـذي يـدعو إلى العـدل والمسـاواة، فالنـاس سواسـية في الحقوق والواجبات، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى.

ثم يجـنح إلى فكـرة بالغـة الخطـورة وهـي: أن لا عتـب علـى اللـص الـذي يسـرق مـن مـال الأغنيـاء، فهـو إن فعـل ذلـك إنمـا أخـذ بعـض حقـه الـذي حـال الغـني الجشـع الطمّـاع بينـه وبينـه. يقـول في مقالـه "الناشـئ الفقـير": فلـولا شـح الأغنيـاء بأمـوالهم وكلـبُهم عليهـا وحيازتهـا عـن الفقـراء لمـا وجـد في الأرض قاتـل ولا سـارق ولا قـاطع طريـق، ولا يسـرق السـارق ولا ينهـب الناهـب ولا يلـص اللـص إلا جـزءًا مـن حقـه الـذي كـان يجـب أن يكـون لـه لـو كـان للمـال زكـاة وللرحمـة سبيل إلى الأفئدة والقلوب[14].

ويمتـاز المنفلـوطي في اجتماعياتـه بأنـه حـدب علـى ذوي الضـعف والمسـكنة ، وظهـر بمظـاهر مختلفـة للعطـف والرحمـة، ولكنـه أسـاء مـن حيـث أراد الإحسـان إذ نشـر المسـاوئ وبسـط فصـولها حـين أراد التحـدث عنهـا ومحاربتهـا ، فكان لبسطها أثر أشد من أثر مقوماتها"[15] .

المطلب الثاني

قضية المرأة

احتلـت المـرأة مركـز الصـدارة في مقـالات المنفلـوطي وقصصـه الموضـوعة والمترجمـة بصـورة عامـة، يتعامـل معهـا أمًّـا وزوجـةً وابنـة، ويتابعهـا في تحولاتهـا الزمنيـة المختلفـة مـن الطفولـة، إلى الصـبا، وإلى الشـباب فالكهولـة فالشـيخوخة. ويتحـدث عنهـا باقتضـاب حينًـا وبإطنـاب أحيـانًا. ويطـرح العديـد مـن القضـايا الـتي تهـمّ المـرأة وتنفـرد بهـا كالحجـاب، وحقهـا في اختيـار الـزوج، والخيانـة. الزوجيـة؛ بالإضـافة إلى القضـايا المشـتركة بينهـا وبـين الرجـل كـالتعليم، والفقـر، والاسـتغلال الاقتصـادي، والجهـل ومـا إلى ذلـك. يـرى المنفلـوطي أن للمـرأة كيـاناً مسـتقلاً وحيـاة ذاتيـة فهـي تفهـم معـنى الحيـاة كمـا يفهمهـا الرجـل، فيجـب أن يكـون حظّهـا مـن الحيـاة مثـل حظـه منهـا، وأن تعـيش حياتهـا بحريـة كاملـة لا أن تكـون جاريـة مسـتعبدة للرجـل، يملـك عليهـا كـل مـادة مـن مـواد حياتهـا، ويسـدّ عليهـا كـل منفـذ حـتى منفـذ النظـر والتفكير[16].

(13) مصطفى لطفي المنفلوطي: النظرات ،1/ 88-89.
(14) مصطفى لطفي المنفلوطي: النظرات ،3/ 23.
(15) حنّا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي، مرجع سابق، ص202.
(16) مصطفى لطفي المنفلوطي: النظرات، 3/ 116.

ولكن المنفلوطي – وإن نادى بحرية المرأة، وأن يكون لها كيان مستقل- لا يرضى منها أن "تتخلع وتستهتر وتهيم على رأسها في مجتمعات الرجال وأنديتهم، وتمزق حجاب الصيانة والعفة المسبل عليها [17].

ذلك أن احتجاب المرأة في نظره صون لعفها وحفاظ لشرفها، وفيه وقايتها من أن تكون عرضة للرجال. وناقش هذه القضية قضية الحجاب بشيء من التفصيل في قصته المسماة بـ"الحجاب" وانتصر لها أيما انتصار، وذلك في مناقشته صاحبه الذي عاد من الغرب بعدما عاش هنا ردحًا من الزمن، حيث انطبعت أخلاقه بأخلاق الغربيين، وتنكر لدينه ووطنه، وحاول المنفلوطي بوسائل شتّى أن يقنع صاحبه هذا على ضرورة تحجب المرأة والتزامها به، ويقول له: "فالشرف كلمة لا وجود لها في قواميس اللغة ومعاجمها، فإن أردنا أن نفتّش عنها في قلوب الناس وأفئدتهم قلّما نجدها.. و أنكر وجودها عند الرجل القادر المختلب والمرأة الحاذقة المترفّقة إذا سقط بينهما الحجاب وخلا وجه كلٍّ منهما لصاحبه"[18].

وفي مقاله "البائسات" ينادي المنفلوطي بضرورة تعليم المرأة، فإن جهلها من أكبر أسباب بؤسها وشقائها، بيد أن معنى التعليم يتوسع لديه ليشمل تعلم أنواع الحِرف والصناعات التي تستطيع المرأة أن تقتات منها، وترفّه بها عن نفسها عاديات الزمان. يقول: " إن المرأة المصرية شقية بائسة ولا إلا سبب لشقائها وبؤسها جهلها وضعف مداركها. إنها لا تحسن عملا ولا تعرف باب مرتزق ولا تجد بين يديها سلعة تتجر بها وتقتات منها إلا قلب رجل"[19].

وينهي المقال بهذا النداء المؤثّر: "علِّموها لتجعلوا منها مدرسة يتعلم فيها أولادكم قبل المدرسة، وأدّبوها ليتربى في حجرها المستقبل العظيم، للوطن الكريم.[20] ولم يأت نداؤه هذا بضرورة تعليم المرأة ووجوبه عليها ناتجًا عن نزعة طارئة، أو فكرة عابرة، فقد عُنِي الرجل بتعليم بناته وتربيتهن بجانب اهتمامه بتعليم أبنائه "وقد أحضر لبناته بمنفلوط مدرسًا خاصًا، ولما أقام بالقاهرة أدخل ابنته "نجية" مدرسة خاصة هي الكلية الأمريكية، وحصلت ابنته الأخرى "زينب" على ليسانس آداب قسم الفلسفة، ثم على ليسانس الحقوق"[21]. وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على إيمان الرجل وعنايته بتعليم المرأة وتربيتها.

ولم تقف عناية المنفلوطي بمشكلات المرأة واهتمامه بعلاجها إلى هذا الحدّ ،لكنه اقتحم معها غمار الحياة،حيث نشر يراعه مدافعاً عن الآثمات ذائداً عنهن، ونادى المجتمع أن يساعدهن في إخراجهن من الهوّة السحيقة التي سقطن فيها، وأن يبادر الرجال للزواج من بعض هؤلاء النسوة لينقذوهن من جحيم الانحراف. يقول: "إن أبى

(17) مصطفى لطفي المنفلوطي: النظرات ،3/ 117.
(18) مصطفى لطفي المنفلوطي: العبرات، دار الهدى الوطنية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، (د. ط)، (د.ت)، ص: 42.
(19) مصطفى لطفي المنفلوطي: النظرات ،1/ 291.
(20) مصطفى لطفي المنفلوطي: النظرات ،1/ 294.
(21) د. محمد أبو الأنوار: مصطفى لطفي المنفلوطي حياته وأدبه، مكتبة الشباب بالمنيرة، مصر، (د. ط) 1982م، 1/ 51.

الرجـل أن يتـزوج المـرأة بغيـاً فليحـل بينهـا وبـين البغـاء، ولا سـبيل لـه إلى ذلـك إلا إذا اعتـبر الـزواج باباً مـن أبـواب الإحسـان، أي: إنـه يتزوجهـا لهـا أكثـر ممـا يتزوجهـا لنفسـه، وأحـق النسـاء بالإحسـان أولئـك اللـواتي لم يـرزقهن الله الجمـال والمـال، والحسـب والنسـب، فـإن أبى إلا أن يتـزوج المـرأة السـعيدة، فلـيعلم أنـه هـو الـذي أخـذ الشـقية مـن يـدها، وسـاقها بنفسه إلى قرارة الشقاء ورماها بيده في هوة الفسق والبغاء"[22].

ولكـن إذا أتيحـت للمـرأة حيـاة العفـاف والفضـيلة، وتيسّـر لهـا الشـرف والطّهـر، ثم نبـذت ذلـك كلـه وراءهـا، وهجرته إلى الفسق والبغي، فحينئذ ينقلب عليها المنفلوطي ويحرض عليها، كما فعل في قصته "غدر المرأة"[23].

"وكـان المنفلـوطي في اجتماعياتـه يفـرط في حنـوه علـى المـرأة، ويبـالغ في ذلـك مبالغـة عجيبـة، وينعـي علـى الرجـل قسـوته وغلظتـه، وكـان يكـره الطـلاق ويمقتـه -وهـو علـى حـق- وحـتى إذا زلـت المـرأة، وسـاءت سـيرتها، فإنـه يلـتمس لهـا المعـاذير، وينحـو باللـوم الشـديد علـى الـذئب البشـري الـذي افترسـها، إمـا؛ لأنـه أكرمهـا علـى مـا كانـت تتـأبى عليـه، أو خـدها ومناهـا ثم خـاس في عهـده، وتركهـا بعـد أن قضـى منهـا لبانتـه، ولهـذا كـان المنفلـوطي مـن أنصـار الحجـاب الصـفيق حفاظًا على المرأة، وحماية للفضيلة"[24].

المطلب الثالث

العادات المستهجنة

كـان لنشـأة المنفلـوطي الدينيـة وتلمذتـه علـى الإمـام محمـد عبـده، ودراسـته لكتاباتـه وكتـابات غـيره مـن المصلحين الاجتماعيين الكبار، وما فطر عليها من الأخلاق الفاضلة أثرًا طيباً في أن يرفع علم الإصلاح في مجتمعه.

ومـن الموضـوعات الـتي تناولهـا المنفلـوطي بالنقـد في هـذا الصـدد موضـوع القمـار وآثاره الضـارة في المجتمـع. فهـو يـرى أن المقـامر لا يعـدّ بأيّ حـال مـن الأحـوال مـن العقـلاء المتبصـرين، لاسـتحكام الغبـاوة والجهـل في رأسـه، فهـو يتـاجر بالأحـلام في سـوق الأوهـام. يقـول: "مـا جلـس المقـامر إلى مائـدة القمـار إلا بعـد أن اسـتقر في نفسـه أن الـدرهم الـذي في يـده سـيتحول بعـد برهـة مـن الزمـان إلى دينـار يعـود بـه إلى أهلـه فرحـاً مغتبطـاً، وأحسـب أن العقـول العشـرة مجتمعـة ومتفرقـة تعجز عن إدراك سر هذه العقيدة ومثارها"[25].

(22) مصطفى لطفي المنفلوطي: النظرات، 1/ 254.
(23) مصطفى لطفي المنفلوطي: النظرات، 2/ 229.
(24) عمر الدسوقي: نشأة النثر الحديث وتطوره. مرجع سابق، ص: 179-180.
(25) مصطفى لطفي المنفلوطي: النظرات، 2/ 94-95.

وفي مقاله "الانتحار" يرى أن الانتحار نزعة فاسدة وعادة مستهجنة، وأقصى ما يصل إليه الإنسان من الجبن، وأنه لا يقدم عليه إلا من خلا رأسه عن ذرة من العقل والشعور. لأن حب النفس فطرة فطر الله عليها الإنسان لتكون ينبوع حياته.

ولا يجد أي عذر للمنتحر في انتحاره مهما طالت ليلة همومه وأحزانه، ومهما أصابته كوارث الدهر وأزمات العيش ، لأنه لا نهاية لهموم الدنيا وأحزانها، وما زال الناس يتقلبون منذ آدم عليه السلام إلى يومنا هذا، بين صحة ومرض وسعادة وشقاء. يقول: "ما أكثر هموم الدنيا، وما أطول أحزانها، لا يفيق المرء فيها من همّ إلا إلى هم...ولا يزال بنوها يترجحون ما بين صحة ومرض وفقر وغنى وعز وذل وسعادة وشقاء، فإذا صح لكل مهموم أن يكره حياته وكل محزون أن يقتل نفسه خلت الدنيا من أهلها "[26] ثم يشير إلى طامة كبرى وهي إقدام طلبة العلم على الانتحار إثر سقوطهم في اختباراتهم، ويرجع ذلك إلى المعلمين والأساتذة الذين لم يربّوا التلاميذ تربية دينية وأدبية، فإنهم إن فعلوا ذلك ما أقدم تلميذ على احتقار حياته الثمينة وازدرائها، ولما جنى على نفسه تلك الجناية. يقول: في كل موسم من مواسم الامتحان المدرسي نسمع بكثير من حوادث الانتحار بين المتخلفين من التلاميذ والراسبين، ولو ربي التلميذ تربية دينية لما هان عليه أن يخسر سعادته الأخروية...ولما احتقر حياته الثمينة وازدراها ولوى وجهه عنها."[27].

المطلب الرابع

مفاسد المدنية الغربية

حدّد المنفلوطي موقفه من المدنية الغربية في مقدمة كتابه النظرات فقال: "استطعت وقد غمر الناس ما غمرهم من هذه المدينة الغربية أن أجلس ناحية منها، وأن أنظر إليها من مرقب عالٍ... فرأيت حسناتها وسيئاتها، وفضائلها ورذائلها، وعرفت ما يجب أن يأخذ منها الآخذ، وما يترك التارك، فكان من همي أن أحمل الناس من أمرها على ما أحمل عليه نفسي، وأن أنقم من هؤلاء العجزة الضعفاء تهالكهم لها"[28].

ويعجب من أولئك الذين إذا اعترض عليهم معترض أمرًا ما، أسرعوا في الاعتماد على الاحتجاج بالمدنية الغربية "كأنما هي القانون الإلهي الذي تثوب إليه العقول عند اختلاف الأنظار...، أو القانون المنطقي الذي توزن به التصديقات والتصورات لمعرفة صوابها وخطئها"[29].

(26) مصطفى لطفي المنفلوطي: النظرات ،2/ 131.
(27) مصطفى لطفي المنفلوطي: النظرات ،1/ 185.
(28)مصطفى لطفي المنفلوطي: النظرات ،1/ 29-30
(29)مصطفى لطفي المنفلوطي: النظرات ،1/ 30

ويحـزن الحـزن كلـه وهـو يـرى تقليـد الغـرب وقـد تعشـش في أذهـان الكثـيرين مـن الشـرقيين حـتى في العلـم والأدب والفلسـفة والشـعر، وسمـج في نظـرهم علمـاء الشـرق وشـعرائه، بـل افتخـروا بجهلهـم لهـم، وجهـل مـا جـادت بـه قـرائحهم، وسطّره يراعهم

"حـتى أصـبح تاريـخ المشـرق وتاريـخ علمائـه و أدبائـه، وفلاسـفته وشـعرائه صـورة مـن أقـبح الصـور، وأسمجهـا في نظـر كثـير مـن الشـرقيين الـذي أصـبحوا يفخـرون بجهـل تاريخهـم إن جهلـوه، ويـراؤون بجهلـه إن علمـوه"[30]،ثم نفـذ إلى قضـية هامّـة وخطـيرة، هـي أن الرجـل المصـري لضـعفه واستسـلامه وجهلـه للمدنيـة الغربيـة، لا يأخـذ منهـا إلا مسـاوئها ورذائلهـا، ويـدع محاسـنها ومميزاتهـا، ويتلهـى بقشـورها عـن لبّهـا وجوهرهـا. يقـول: "لا يسـتطيع المصـري وهـو ذلـك الضـعيف المستسلم أن يكون من المدنية الغربية إن داناها إلا كالغربال من دقيق الخبز يمسك خشاره، ويفلت لبابه"[31].

ويـتلخّص موقـف المنفلـوطي إزاء المدنيـة الغربيـة: أنـه لم يكـن يكـره المدنيـة الغربيـة لـذاتها، بـل لمسـاوئها ورذائلهـا الـتي صـحبتها، كمـا لم يكـن يـرى بأسًـا في أخـذ المفيـد النـافع والجيّـد الممتـع منهـا، بـل قـد يحـثّ على أخـذه ويـدعو لـه، لكنـه يـذّر حـتى في أخـذ هـذا الصـالح؛ لأنـه مختـلط بشـرٍّ كثـير والنجـاة غـير ميسـورة؛ فيجـب علـى مـن أراد أن يأخـذ شـيئًا مـن هـذه المدنيـة أن يتلطـف في أخـذه، ولا ينـدفع دون إعمـال النظـر والتفكـير. بـل إن إعجابـه الشـديد بالآثار الأدبيـة الغربيـة الرفيعـة الـتي عـرف بعضـها عـن طريـق الترجمـة، وأعـاد كتابـة بعضـها، لـدليلٌ صـارخ علـى أنـه لا يـرفض التـأثر بالغـرب فيمـا هو مفيد ونافع، ومن ثم فلا تناقض في موقفه من المدنية الغربية.

وقـد زعـم بعـض المستشـرقين، مـن أمثـال (كـارل بروكلمـان)، و(جـب)[32]، وكثـير ممـن تابعهـم، وكتبـوا عـن المنفلـوطي في العربيـة مقـالات متفرقـة، أنـه كـان عـدوًا للمدنيـة الغربيـة، ويراهـا خطـرًا دائمًـا، يجـب علـى الشـرق الحـذر منهـا. فمـثلاً يقـول الأسـتاذ بطـرس البسـتاني: "كـان المنفلـوطي يمقـت المدنيـة الغربيـة ويكرههـا ويشـوّه محاسـنها، ولا ينظـر منهـا إلا إلى ناحية العيوب والرذائل، وأنه يتغاضى عن محاسنها وجانب الصلاح فيها"[33].

ويـرى الباحـث أن الأسـتاذ بالـغ فيمـا ذهـب إليـه، بـدليل أن المنفلـوطي كـان يـدعو لأخـذ المفيـد النـافع والصـالح الممتع في المدنية الغربية، كما كان يحث على الاستفادة من حسنات تلك الحضارة ولاسيما في التقدم العلمي.

يقـول المنفلـوطي في مقالـه المدنيـة الغربيـة: "لا مـانع مـن أن يعـرب لنـا المعربـون المفيـد النـافع مـن مؤلفـات علمـاء الغـرب والجيـد الممتـع مـن أدب كتـابهم وشـعرائهم علـى أن ننظـر إليـه نظـر الباحـث المنتقـد لا الضـعيف المستسـلم...ولا

(30) مصطفى لطفي المنفلوطي: النظرات ،1/ 30.

(31) مصطفى لطفي المنفلوطي: النظرات ،1/ 31.

(32) سير هاملتون الكساندر روسكين جب (1895- 1967م) يعد إمام المستشرقين الانكليز المعاصرين، استاذ اللغة العربية في جامعة لندن سنة 1930م، واستاذ في جامعة أكسفورد منذ سنة 1937 م، وعضو مؤسس في المجمع العلمي المصري، تفرغ للأدب العربي وحاضر بمدرسة الشرقيات بلندن. انظر: بديع الزمان النورسي: إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر- استانبول ، الطبعة الثالثة 1999م، ص: 278.

(33) بطرس البستاني: أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، دار نظير عبود، بيروت، الطبعة الأولى 1997م ص: 380.

مانع من أن ينقل إلينا الناقلون شيئا من عادات الغربيين ومصطلحاتهم... على أن ننظر إليه نظر من يريد التبسط في العلم بشؤون العالم والتوسع في التجربة والاختبار."[34]

ولخص د. شوقي ضيف موقفه من المدنية الغربية، فقال: فقد أساء الظن بها، ورد إليها معايب الشباب وانغماسهم في حمأة الرذيلة، وكأنه غاب عنه ما تحمل هذه المدنية من خير للإنسانية، ففيها الشر وفيها الخير، فيها ما ينبغي أن نرفضه وما ينبغي أن نأخذه"[35].

المطلب الخامس

المحرمات الدينية

وقف المنفلوطي في كتابه النظرات وقفات طويلة عند الإسلام والمسلمين، فبكى ما هم فيه حينئذ من تأخر وانحطاط وانغماس في الشهوات والملذات، ورماهم بأنهم عطلوا الأحكام وعصوا أوامر الدين ونواهيه، وكأنه تحول إلى خطيب في مسجد، فهو يعظ، ويبالغ مبالغة تخرجه عن جادة الحقيقة"[36].

وكان المنفلوطي شديد التمسك بالدين الإسلامي والاهتمام به، ذائدًا عن حوزته، شديد الغيرة عليه، ويرجع اهتمامه هذا بالإسلام وتعاليمه إلى نشأته في بيت علم ودين والعمل في سلك القضاء، ودراسته بجامع الأزهر الذي حافظ على التراث الإسلامي والعربي نحو ألف عام، واتصاله بالإمام الشيخ محمد عبده.

ويحمل المنفلوطي في مقاله "يوم الحساب" على أولئك الجهلة المخدوعين الذين يبررون أعمالهم الخاطئة بما تسمى بالحيل الشرعية، فيمنح أحدهم ماله لولد من أولاده على نيّة استرجاعه قبل أن يحول عليه الحول ليفرّ من أداء فريضة الزكاة، ويأتي آخر ويطلق زوجه ثلاثًا، ثم يندم على فعله فيجدّ في البحث عن محلل يحلل له زوجه ليعود إلى معاشرتها، أي أقوم يعمدون إلى الأحكام الشرعية فينتزعون منها حكمها وأسرارها، ثم يرفعونها إلى الله قشورًا جوفاء مستندين في ذلك –حسب زعمهم– على تقليد إمام من الأئمة، أو فقيه من الفقهاء، وهم أجلّ قدرًا وأهدى بصيرة من أن يُتخذوا هزؤاً وسخرية.

وكان يتصدى بكل ما أوتي من قوة وبيان للخرافات والبِدع التي بدأت تدخل في عقائد بعض المسلمين في مصر وخارجها محاولًا قدر استطاعته توضيح الأمور وجلاء المواقف للناس. وكتب إليه أحد علماء الهند عن كتاب ظهر في الهند حول حياة السيد عبدالقادر الجيلاني وذكر مناقبه وكراماته، وفي الكتاب فصل يشرح فيه المؤلف كيفية زيارة قبر السيد عبدالقادر فيقول: "أول ما يجب على الزائر: "أن يتوضأ وضوءاً سابغًا، ثم يصلي ركعتين بخشوع

(34) مصطفى لطفي المنفلوطي: النظرات، 1/160-161.
(35) د. شوقي ضيف: الأدب العربي المعاصر في مصر، مرجع سابق، ص: 233.
(36) د. شوقي ضيف: الأدب العربي المعاصر في مصر، مرجع سابق، ص: 233.

واستحضـار، ثم يتوجـه إلى تلـك الكعبـة المشـرفة، وبعـد السـلام علـى صـاحب الضـريح المعظـم يقـول: "يا صـاحب الثقلـين أغثني وأمدني بقضاء حاجتي، وتفريج كربتي"[37].

وقـد فصّـل المنفلـوطي في الـردّ علـى هـذا الكتـاب وبـيّن عقيـدة التوحيـد وبطـلان توجّـه السـائل في دعائـه إلى غـير الله، أو وصـف العبـاد بأوصـاف رب العبـاد، والسـجود بـين يـدي الأضـرحة والقبـور، وغـير ذلـك مـن الخرافـات الـتي احتواهـا الكتـاب، والـتي لا تمـتّ إلى العقيـدة الإسـلامية السـليمة بصـلة، وأوضـح أن المـؤمن لا يملـك إلا أن يأسـف باكيًـا علـى حـال هـؤلاء. يقـول: "أي عـين يحمـل بهـا أن تسـتبقي مـن شـؤونها قطـرة لا تريقهـا أمـام هـذا المنظـر المـؤثر؛ منظـر أولئـك المسـلمين وهـم ركّـع سـجّد علـى أعتـاب قـبر ...وأي قلـب يسـتطيع أن يسـتقر بـين جنـبي صـاحبه سـاعة واحـدة فـلا يخفـق وجـدا أو يطـير جزعـا حينمـا يـرى المسـلمين أصـحاب ديـن التوحيـد أكثـر المشـركين إشـراكا بالله، وأوسـعهم دائـرة في تعـدد الآلهة وكثرة المعبودات."[38]

ويـرى كـل الفضـائل الـتي تحلّـت بهـا العصـور الإسـلامية الأولى مـن الشـرف والغـيرة والأنفـة والحميـة أثـرًا مـن آثار عقيـدة التوحيـد الخالصـة مـن جميـع الشـوائب والخرافـات، ويرجـع ذلّ الرقـاب وفتـور الهمـم والنفـوس في هـذه الأيام إلى دخـول كثـير مـن الزيـف والشـر إلى هـذه العقيـدة، وهـو سـبب غلبـة أعـداء المسـلمين علـى أمـرهم، ولـن يسـتطيع المسـلمون أن يعيـدوا مجـدهم الغـابر، إلا بنبـذ اللجـوء والتضـرع في حاجـاتهم ومطـالبهم إلى الراقـدين في الأضـرحة والقبـور. يقـول المنفلـوطي في ذلـك: "والله لـن يسـترجع المسـلمون سـالف مجـدهم، ولـن يبلغـوا مـا يريـدون لأنفسـهم مـن سـعادة الحيـاة وهنائهـا إلا إذا اسـترجعوا قبـل ذلـك مـا أضـاعوه مـن عقيـدة التوحيـد، وإن طلـوع الشـمس مـن مغربهـا أقـرب مـن رجـوع الإسـلام إلى سـالف مجـده مـا دام المسـلمون يقفـون بـين يـدي الجـيلاني كمـا يقفـون بـين يـدي الله، ويقولـون للأول كمـا يقول للثاني : "أنت المتصرف في الكائنات، وأنت سيد الأرضين والسموات" [39].

ويـرى أنـه لـيس كـل مـن أطـال لحيتـه وحـرّك مسـبحته ووسّـع جبّتـه وكـوّر عمامتـه، ولكـن خلـت نفسـه مـن كـل منفـذ ينفـذ إليهـا شـعاع مـن أشـعة الرحمـة، أو نسـمة مـن نسـمات الإحسـان، يُعـدّ مـن الأتقيـاء، ذلـك أنّ التقـوى شـيء أبعـد بكثـير مـن هـذه العنـاوين الكاذبـة. يقـول المنفلـوطي: " فلـن يـؤمن المـؤمن حـتى يبـذل في سـبيل الله أو في سـبيل الجماعـة مـن ذات نفسـه أو ذات يـده مـا يشـق علـى مثلـه الجـود بمثلـه، أمـا الجـود بالشـفاه للهمهمـة، والأنامـل للمسـبحة، فعمـل لا يتكلـف صـاحبه لـه أكثـر ممـا يتكلـف لتقليـب ناظريـه، وتحريـك هُدبيـه، وهـل خلقـت الشـفاه إلا للتحريـك، والأنامل إلا للتقليب [40]؟.

(37) مصطفى لطفي المنفلوطي: النظرات ،2/ 16.
(38)مصطفى لطفي المنفلوطي: النظرات ،2/ 17.
(39)مصطفى لطفي المنفلوطي: النظرات :2/ 17-18.
(40)مصطفى لطفي المنفلوطي: النظرات:26/2.

وكان يتصدى لهجمات الطاعنين على الإسلام ومزاعمهم الفاسدة ضد الإسلام والمسلمين، فردّ على اللورد كرومر[41] ما زيّن له خياله السقيم في كتابه "مصر الحديثة" من أن الدين الإسلامي أضيق من أن يتسع للمدنية الإنسانية، كما لا يصلف نظاماً اجتماعيًا، بخلاف الدين المسيحي الذي يتسع لكل ذلك ويصلف له، ثم شرع يستدل على الإسلام بالمسلمين، وعلى المسيحية بالمسيحيين.

وتمكّن المنفلوطي بكل جدارة من أن يبددّ مزاعم اللورد كرومر الفاسدة، وأن يستدل على المسيحية بالمسيحيين كما فعل الأول، فذكر المعار الدموية التي اندلعت بين الأرثوذكس والكاثوليكية تارة، وبين الكاثوليك والبروتستانت تارة أخرى، كما ذكر الجهل الذي كان يخيم بأجنحته السوداء على الأمة المسيحية، حيث كان يحرم الكاهن على المسيحيين النظر في غير الكتاب المقدس، أو أن يتلقى أحدهم علما في مدرسة غير مدرسة الكنيسة، ثم ذكر الحادثة التي أحرق فيها الشعب المسيحي فتاة حسناء لأنها كانت تشتغل بعلوم الرياضة والحكمة، وذكر غير ذلك من الأحداث الجسام والجرائم الكبرى في تاريخ المسيحية والمسيحيين.

ثم انثنى بذكر المدنية الإسلامية التي طلعت مع الإسلام في سماء واحدة، كان الناس في ظلها متصافون وأصدقاء متحابون مهما تباينت ألوانهم وألسنتهم وأوضاعهم الاجتماعية، "فالمتعبد في مسجده، والفقيه في درسه، والمعرب في مكتبته، والرياضي في مدرسته، والكيمائي في معمله، والقاضي في محكمته، والخطيب في محفله، إخوة متصافون؛ وأصدقاء متحابون، لا يختصمون ولا يقتتلون، ولا يبغي أحد منهم على أحد"[42].

ولم يكن المنفلوطي على شدة اهتمامه بالدين الإسلامي والذود عنه متعصبًا، ولم يكن يميل بين جنبيه كراهية ما لخديان الأخرى وأتباعها، فقد انطلق في كل ما كتبه عن فهم ثاقب وفكر سليم، وما إعجابه بكثير من أعلام ونوابغ المسيحيين والاعتراف بفضلهم كما في مختاراته ثم رثائه لبعض أدبائهم كجرجي زيدان[43] إلا شاهد صدق على عدم تعصبه وحقده.

المطلب السادس

التعليم والتربية

يقول الدكتور شوقي ضيف مبينًا حالة العقم والجمود التي سادت المناهج التعليمية في المدارس والمؤسسات التي كانت تُعنى بالتعليم والثقافة في تلك الفترة في مصر، وعلى رأسها الأزهر الشريف: "وتتراجع النهضة الذهنية، حتى تصبح شيئًا ضئيلاً جدًّا لا نكاد نتبينه إلا في متون وملخصات يبدا فيها الأزهريون ويعيدون، وكل ما يستطيعون عمله

(41) معتمد إنجليزي، عمل في مصر نحو ربع قرن من سنة1883 إلى 1907م، وكانت سنواته سنوات إرهاب وطغيان لا تنسى، ولا سيما ما فعله بأهالي قرية دنشواي.
(42) مصطفى لطفي المنفلوطي: النظرات ،1/ 218-219.
(43) هو جرجي بن حبيب زيدان (1861- 1914م)، ولد وتعلم ببيروت، ورحل إلى مصر، فأصدر مجلة "الهلال"، وله من الكتب: "تاريخ مصر الحديث"، و"تاريخ التمدن الإسلامي"، و"تاريخ اللغة العربية"، وتوفي بالقاهرة. انظر: خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السادسة،1980م،2/108-109.

أن يشـرحوها، وقـد يشـرحون الشـرح وقـد يعلقـون عليـه، وهـم بـذلك لا يضـيفون إلى العلـم شـيئًا ذا خطـر، بـل عقّـدوا العلـم تعقيدًا بكثرة متونهم وشروحهم وتقريراتهم وتعليقاتهم وما حشدوا فيها من عُقد وألغاز"[44].

ظـلّ المنفلـوطي بالأزهـر قرابـة عشـر سـنوات يـدرس وينهـل مـن عيونـه، ولكـن يبـدو أنـه في النهايـة ضـاق بـه ذرعًـا، ولم يطـق صـبرًا علـى تلـك الطريقـة العقيمـة في تـدريس العلـوم والمعـارف، وكـاد يهجـره إلى غـير رجعـة كمـا هجـره قبلـه الإمـام محمـد عبـده، والشـيخ علـي يوسـف صـاحب صـحيفة المؤيـد حيـث انصـرف كـل منهمـا عـن التعلـيم بالأزهـر. وكانـت هـذه الظاهرة منتشرة بين كثير من شباب مصر آنذاك[45].

ولعـل السـبب الأساسـي في كراهيتـه لطريقـة التعلـيم الأزهـري وتبرمـه بـه، هـو ذلـك الأسـلوب الجامـد العقـيم في تعلـيم العلـوم وتدريسـها، والـذي كـان يقـف عنـد القشـور دون الانتفـاع بالجـوهر واللـب. وفي مقالـه "زيـد وعمـرو" تنـاول قضـية بالغـة الأهميـة؛ وهـي وقـوف المعلمـين في مدرسـة الأزهـر علـى الأمثلـة والشـواهد البالـية الـتي سـطّرها يـراع الأقـدمين، وعـدم تجـاوز حـدودها، حـتى وإن لم تواكـب العصـر ولم تلائمـه، فلـيس هنـا مطابقـة ولا صـلة لا مـن قريـب ولا مـن بعيـد بين هذه الأمثلة الحافلة بالحوادث الدموية بين زيد وعمرو، وخالد وبكر، وبين واقع المتعلم وعمله.

ثمّ رأى أن عـلاج هـذه الظـاهرة الـتي انتشـرت في المـدارس والمعاهـد الدينيـة بمـا فيهـا الأزهـر الشـريف، هـو أن تُـتْرَك هـذه الشـواهد الدمويـة البالـية غـير الملائمـة إلى أمثلـة جديـدة مسـتطرفة تسـكن إليهـا نفـوس المتعلمـين وتـذهب بهـا وحشـتهم، وأن تكـون هنـا علاقـة وطيـدة ومطابقـة قويـة بـين الأمثلـة وبـين قواعـد العلـم الـتي يريـد المـتعلم حصـولها، حـتى تكون العلاقة قريبة بين العلم والعمل.

هكـذا كـان المنفلـوطي ينظـر إلى التعلـيم في الأزهـر الـذي كـان يمثـل التعلـيم الـديني في مصـر آنـذاك ويتنـاول العقـم والجمـود الـذي عـمّ مناهجـه التعليميـة، وطرائقـه التدريسـية بالنقـد، ويعمـل قـدر إمكانـه أن يلفـت أنظـار العـاملين والمسؤولين إلى إصلاح الأزهر وتطوير مناهجه التعليمية، فصلاحه يعني صلاح الأمة ومجده يعني مجدها.

أمـا التعلـيم المـدني الحـديث فجلّـه كـان مسـتوردًا مـن الخـارج أو بالأحـرى مـن الـدول الاسـتعمارية، وكـان هـذا التعلـيم يغفـل الاهتمـام بمقدسـات الأمـة الإسـلامية ويطعـن في ثوابتهـا، محـاولاً قطـع الصـلة بـين الأمـة الإسـلامية وتراثهـا العريق.

يقـول الـدكتور جميـل عبـدالله محمـد المصـري: "والواقـع أن الاسـتعمار كـان حريصًـا علـى توجيـه التعلـيم لتخـريج طائفـة مـن المتعلمـين يخـدمون مصـالح الحكومـة والشـركات، ويهـدف أساسًـا إلى القضـاء علـى الثقافـة الإسـلامية بالطعـن

(44) د. شوقي ضيف: الأدب العربي المعاصر في مصر، مرجع سابق، ص: 19-20.
(45) د. محمد أبو الأنوار: مصطفى لطفي المنفلوطي حياته وأدبه، مرجع سابق، 1/ 213.

وإثارة الشكوك من حولها والشبهات في أعماقها فقد استطاع أن ينزع من برامج التعليم الديني وروح الأدب العربي وتاريخ الإسلام وصلة مصر بالعرب والعربية، ثم أدخل في برامج المدارس أن مصر فرعونية" (46).

وما دام التعليم المدني الحديث على هذه الحال من محاربة الدين، وإفساد العقائد، والنيل من مقدسات الأمة، فلا غرو أن يتقدم المنفلوطي مناديًا بضرورة تمسك الطلاب بالدين ومقوماته الأساسية، وحاملاً على تلك المدارس التي لا همّ لها إلا محاربة اللغة العربية والدين الإسلامي. يقول المنفلوطي في مقال له بعنوان "أمس واليوم" عن رجل مصري ألحق أولاده مدارس مدنية حديثة مختلفة تعلمّوا فيها لغات مختلفة الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، ثم تخرّجوا، وقد فقدوا العناية بدينهم والاعتزاز بوطنهم، أما الدين فخن هذه المدارس تؤمن بالمادية المحضة ولا مجال للدين في شأن من شؤونها، وأما الوطن فخن المدارس تديرها أيد أجنبية تعمل جاهدة إضلال الجيل المصري الجديد وغوايتهم، حتى يستخدموهم فيما بعد في تحقيق مصالحهم ومنافعهم في هذه البلاد. يقول المنفلوطي عن خريجي هذه المدارس:" خرجوا من المدارس بلا دين ولا وطن، أما الدين فلأن أكثر مدارسنا حتى الأهلية منها مادية محضة، لا تعلق للدين بشأن من شؤونها، والدين خُلق شأنه كبقية الأخلاق لا يرسخ في النفس إلا بتكرر الصور الدينية وتداولها عليه ... وأما الوطن؛ فلأن المدارس عندنا تديرها من وراء ستار أيدٍ أجنبية تربي التلاميذ لها لا لأوطانهم" (47).

الخاتمة:

وصل البحث إلى نهاية المطاف، مع كتاب "النظرات" للكاتب مصطفى المنفلوطي، هذا الكتاب الذي ضم بين دفتيه أبرز ما سطره المنفلوطي في عالم الأدب، فكان بحق أديباً إنسانياً ومصلحاً اجتماعياً من الطراز الأول، ويمكن تسجيل بعض النتائج التي توصلت إليها على الشكل الآتي:

– أدب المنفلوطي أدب حي شكلاً ومضموناً؛ قائم على تصوير البؤس والحرمان الذي عانت منه فئة الضعفاء والمساكين في مجتمع لا يبالي بمعاناتهم ولا يلقي لها بالاً.

– رأى النقاد المعاصرون في أدب المنفلوطي أدباً كلاسيكياً مما ألحق بالمنفلوطي ظلماً كبيراً، ولا نستطيع إنكار تطور النثر على يد المنفلوطي، رغم كل ما قاله هؤلاء النقاد.

– اتخذ المنفلوطي الحياة الاجتماعية لبيئته ينبوعاً لأفكاره، وتحول فيها بتأثير أستاذه الإمام محمد عبده إلى مصلح اجتماعي، يحاول أن يخفف من حدة المشاكل الاجتماعية، ويدعو إلى التمسك بالفضائل، ويندد بالشرور والآثام.

(46) د. جميل عبدالله محمد المصري: حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة، مكتبة الآداب بمصر، الطبعة الأولى 1989م، 1/ 145.
(47)مصطفى لطفي المنفلوطي: النظرات ،2/ 275.

– يعتبر أدب المنفلوطي الاجتماعي مرآة واضحة لروح العصر الذي كان يعيش فيه، فلقد كان ذلك العصر يعاني عللاً اجتماعية وأمراضاً.

– عالج المنفلوطي مشكلة العدالة الاجتماعية، وحاول أن يسدّ الهوة التي تفصل بين حياة الأغنياء والفقراء، وكتب عن المشاكل الأسرية وسقوط الفتيان والفتيات في مهاوي الرذيلة، وحذر الناس من موبقات المدنية الغربية، ونددّ بالمحرمات الدينية، ونادى بأن التعليم حق جميع أفراد المجتمع، دون تفريق بين الطبقات الغنية والفقيرة.

– يمثّل المنفلوطي في الأدب العربي الحديث قمة الاتجاه الذي ظهر فيه النثر العربي المصفّى، متحرراً من قيود الصنعة والضعف الذي لحق به في العهود الأخيرة.

– بالغ المنفلوطي في تجسيم بعض الأمراض الاجتماعية والأوبئة الخلقية كما فعل في مقاله "أين الفضيلة" بحيث يوحي المقال بأن المجتمع فاسد جملة واحدة في كل طوائفه، ولعلّ سبب هذا التهويل والمبالغة هو حرص المنفلوطي الشديد على ألاّ يشاهد أيّ انحراف مهما صغر شأنه عن جادة الصواب في المجتمع.

وفي النهاية يرى الباحث أن المنفلوطي قامة أدبية سامقة، حباه الله الموهبة إضافة إلى رهافة الحس ورقة الشعور، وفي كتابه النظرات امتلك الرؤية والأداء في الشكل وفي المضمون، ليكون هذا الكتاب نواة للأساليب البليغة والأفكار الاجتماعية التي اتسمت بالنضج والرقي في الطرح والمعالجة، ويثبت الكتاب أيضاً حيوية مادته وأفكاره لعصرنا الحاضر، وكأن المنفلوطي أراد بهذا الكتاب الخلود في ذاكرة القرّاء والارتقاء بأفكارهم، والوصول بهم إلى عالم جميل تسوده الرحمة ويغشاه العدل وتسوده المساواة.

لا يدّعي الباحث أنه استوفى كل شيء عن كتاب النظرات، فعمل البشر منوط به التقصير، فالكمال لله وحده، ولكن حسبه المحاولة في إضافة شيء جديد لنظرات المنفلوطي. والله ولي التوفيق.

المراجع:

1- أبو الأنوار د. محمد: مصطفى لطفي المنفلوطي حياته وأدبه، مكتبة الشباب بالمنيرة، مصر، (د. ط) 1982م.
2- البستاني: بطرس: أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، دار نظير عبود، بيروت، الطبعة الأولى 1997م.
3- أبو الخشب، إبراهيم علي: تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، 1984م.
4- خفاجي، محمد عبد المنعم: دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992م.
5- ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس. دار صادر، بيروت، (د. ط) ،1900م.
6- الدسوقي، عمر: نشأة النثر الحديث وتطوره، الناشر: دار الفكر العربي، (د. ط)، 2007م.
7- أبو ذكري، مرسي: المقال وتطوره في الأدب المعاصر، الناشر: دار المعارف الطبعة: 1981-1982م.
8- رضا، أحمد رشيد: تاريخ الأستاذ الإمام، دار الفضيلة، القاهرة، ج 1، ط 2، 2006م.
9- الزركلي، خير الدين: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السادسة،1980م.

10- زكي الدين، محمد: المنفلوطي، حياته وأقوال الشعراء والكتّاب فيه والمختار من نثره وشعره، مطبعة المحروسة، القاهرة، (د. ط)، 1942م.

11- الزيات، أحمد حسن:

أ- تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة، القاهرة، (د. ط)، (د.ت).

ب- وحي الرسالة، دار نهضة مصر، ط7، 1962م.

12- ضيف، شوقي: الأدب العربي المعاصر في مصر، دار المعارف، مصر، ط 13، (د. ت).

13- الفاخوري، حنّا: الجامع في تاريخ الأدب العربي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1986م.

14- النورسي، بديع الزمان: إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر- استانبول، الطبعة الثالثة 1999م.

15- المصري، د. جميل عبدالله محمد: حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة، مكتبة الآداب بمصر، الطبعة الأولى 1989 م.

16- المقدسي، أنيس: الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، دار العلم للملايين، ط6، 2000م.

17- المنفلوطي، مصطفى لطفي:

أ- العبرات، دار الهدى الوطنية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، (د. ط) (د.ت).

ب- النظرات، دار الآفاق الجديدة، الطبعة: الأولى 1402هـ،1982م.

18- هيكل، أحمد: تطور الأدب في العصر الحديث في مصر، من أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب الكبرى الثانية، دار المعارف، ط6، 1994م.

19- اليازجي، إبراهيم: مناهل الأدب العربي، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، (د.ت).